الصّورَة والاسـم

قِصّة بقلم فاضل السّباعي

ألقى «ج» نظرة رضى الى أوراقه التي سفح على بياضها جهدا ذهنيا مضنيا ، قبل أن تفضي به ، أخيرا ، الى ابتكاره الجديد . ورمى القلم من يده ، وانتصب واقفا وراء المكتب ، وتناول سيكارة ، فأشعلها بهدوء ، وعب منها نفسا طويلا مجته شفتاه في فضاء الغرفة ، وهو ساهم النظر الى الخزانة العامرة بالكتب .. ثم استلقى على الاريكة الوثيرة .

خاطب نفسه : ها قد توصلت ، بعد كد الذهن ، الى ما يدفع عني الخطر اذا ما أحدق بي ! الحاجة أم الاختراع ! وابتسم : من كان يحلم ، في الزمن القديم أو الحديث ، أن يكون في وسع المرء أن يبدل ، لحظة يريد ، من سيمائه وهيئته فيبدو للعيان في صورة امرىء آخر ؟! وغمرت فؤاده نشوة ، فقرر : لن أمكنهم من القاء القبض علي ! واذا قدر لهم ذلك ، بعد هذه المطاردة العنيدة ، فسوف يكون في ميسوري أن أفلت من براثنهم ! واستدرك : الا أن ابتكاري هذا ، أبحاثي النفسية ـ العلمية ، بقي لها أن تخضع للتجربة مرة ومرة ، حتى تكلل بالنجاح !

وهتف في فرح :

ـ سأجربها .. سأجربها ..

واعتصر قلبه ، ههنا ، أسى عميق ، وقد أخذ يفكر على نحو آخر : هكذا ! هكذا ! رجل مثلي ، ذو امكانات غير محدودة ، يطارد ، يظل يطارد ـ كلص ـ دون ذنب جناه ، فيسخر مواهبه كلها في اختراع ما لا نفع فيه للوطن ! « كيف تنسلخ من شخصيتك لتفلت من قبضة مطارديك » !! انه اختراع ـ وأسفاه ! ـ جدير بأن يوصف ، من ذوي العقول النيرة ، بالتفاهة ويقابل بالاستخفاف !.. وأما اختراعي الاول ، ذاك الجهاز الدقيق الذي دسسته في ظهر الباب هناك ، ليرصدهم كلما اقبلوا يداهمونني في عقر داري ، فيحذرني « لسانه » الحاكي هنا ، فالتمس لنفسي سبيل الفرار الى بيت الجيران .. لئن كان اختراعا يدل على قدر من الذكاء ، لهو ، من وجه آخر ، في غير نفع كبير للانسانية المعذبة ! تبا لهم : يا ضيعة ما أبدد من فكر وجهد طلبا للنجاة من قبضتهم ! يا ويحهم ! يا ويحهم !..

انطلق ، في هذه اللحظة ، اللسان الحاكي ، المعلق فوق خزانة الكتب ، محذرا :

ـ انهم في الزقاق ! انهم في الزقاق ! انهم في الز ...

فما كان من «ج» الا أن رمى ، لتوه ، بسيكارته في الصحن ، وقد ملكه هلع مفاجىء ، وقال يخاطب « اللسان » ، وهو يدس قدميه في حذائه على عجل :

ـ كف . قد أخذت علما .

وأحس صوته يرتجف .

أجابه اللسان الحاكي :

ـ ما أرجوه أن تسرع في الفرار ، فانهم أمام باب الدار .. يتهيئون لمباغتتك !

انطلق «ج» ، غير متريث ، من الغرفة الى أرض الدار ، وهو يسمع بأذنيه خفقان قلبه : الى متى أظل أطارد ؟ متجها نحو « السلم » ، المسند أبدا على حائط الجيران الخشبي ، وأخذ يعتلي درجاته بخفة .

فكر : لقد أرهقوني ! ولكنني أعييتهم : مائة مباغتة ولم يظفروا حتى بمواجهتي أو التطلع في عيني ! والجيران الاحباء ينتظرونني دائما ، فوق، وراء « الطاقة » الصغيرة التي أحسنت تمويهها في هذا الحائط . آه، لكم برعت في التفلت من حبائك ..

فوجىء ، وقد بلغ أعلى السلم ، بأحدهم يطل عليه من فوق الحائط الخشبي ، مصوبا نحوه بندقيته ! فتلبث ، لحظة ، في موضعه متجمعا بعضه على بعض ، وقد عراه الذهول .. ثم سرعان ، ما انكفأ يلتمس النجاة من حيث صعد : فرأى ، تحت ، آخر ، وآخر ، وعديدا منهم منتشرين في صحن الدار .. وكل منهم مسدد اليه مسدسا ، أو بندقية ، أو رشيشا صغيرا ! فأيقن انه قد وقع في الشرك ، أخيرا ..

صاح كبيرهم بصوت هادر :

ـ قف مكانك . لا تتحرك .

تسمر «ج» في موضعه ، وقد تشبثت يداه بساعدي السلم ، خوف أن يخر ، مع هذه المباغتة التي لم تكن في حسبانه ، من أعلى السلم الى الارض ! وبصعوبة أدار رأسه اليهم ، وهم تحت اليتيه :

ـ ماذا تريدون ؟

رد رئيسهم :

ـ نريدك أنت

وأخذ يستدير ، وهو على السلم ، بجسمه نحوهم :

ـ ماذا فعلت ؟

ـ مطلوب للسلطة .

ـ ولماذا تطلبني السلطة ، وأنا لم أرتكب ذنبا طوال حياتي ؟!

أحس أنه قد استرد ، في هذا الحوار القصير ، شيئا من رباطة جأشه .

ـ هذا ما يمكنك أن تقوله هناك .

ـ وهل ثمة ما يمنع من أن أعلن ، هنا : اني بريء ؟!

لم يبد على محاوره انه أهتم بما أعلن .

ـ ها نحن أولاء قد ظفرنا بك ، أخيرا ! هيا انزل من على سلمك ، ولا تثر متاعب .

ذكر «ج» جهوده الذهنية المضنية : آن أول ما يتعين علي فعله ، اللحظة ، أن أملأ صدري قوة وجراة .

ـ أنزل وأذهب معكم الى آخر حدود الدنيا . ان بريئا مثلي لا يهاب أحدا .

وعجب من نفسه ، وقد نزل درجة : ان قلبه ، ان أعماقه كلها ، لتطفح ثقة وجراة وجسارة !

قال يحاورهم :

ـ ولكن .. من ذا الذي .. تطلبون ؟

أجاب الرئيس :

ـ نطلبك أنت ، المواطن « ج ... » ، « جلال الدين عرنوس » !

ابتسم «ج» بطمأنينة سابغة ، وهو ينزل درجة أخرى :

ـ ولكني .. لست اياه ، أيها السادة !

وتملكه احساس متعاظم بأنه قد .. بدأ ينسلخ من « شخصيته » ليستحيل الى « شخص » آخر !

هتف الرئيس عاجبا :

ـ كيف ؟ ألست جلال الدين عرنوس ، المطلوب للسلطة ؟

ـ لا !

أكد أحدهم ، وهو يقلب أوراقا بين يديه :

ـ بل انه هو جلال الدين عرنوس ، المطلوب للسلطة ، والذي اقتحمنا بيته هذا مائة مرة ، قبل اليوم .. يا سيدي .

أعلن الرئيس في غيظ :

ـ أتضللنا ؟! انها المرة الاولى بعد المائة ، كما ترى ، التي نقتحم فيها بيتك .

فسألهم ، وهو يتابع النزول :

ـ وهل قابلتموني ؟ أو أدركتم الآخر ، المدعو جلال الدين عرنوس ؟

ـ كنا نحرز ، في كل مرة ، أنك تسللت بطريقة ما ! (قال الرئيس وهو يعاين بانظاره السلم) لم ترتق هذا السلم ؟

أجاب «ج» ثابت الجنان :

ـ أنقب في الحائط .

ـ وما في الحائط ؟

ـ دخل في روعي ، الساعة ، أنه في حاجة الى ترميم !

ـ وأي ترميم ؟ ما أراه الا حائطا خشبيا أصم ! (يصعد ناظريه الى أعلى ، وينادي) أنت ، أيها الرفيق ، فوق الحائط هناك ، هل ترى وراءك ، شيئا ؟

أجاب هذا من أعلى :

ـ لا شيء عندي ، يا سيدي .

جأر الرئيس بصوت راعد :

ـ تطلع حولك جيدا قبل أن تجيب ، أيها الحمار !

لم يخش «ج» من أن يلمح ذلك الرفيق بعض جيرته في انتظاره وراء الحائط ، فقد ورده اليقين بأنهم قد أخلوا المكان في الوقت المناسب !

ـ لا أرى حولي أحد قط ، يا سيدي .

اتجه الرئيس اليه محمار الوجه :

ـ لقد أعيانا البحث عنك جدا .

صحح «ج» ما في القول من خطأ :

ـ لست أنا الذي أعياكم . ولكنه هو .

ـ من هو ؟

ـ المطلوب للسلطة : جلال الدين عرنوس .

ـ أتسخر منا ، يـا رجل ؟!

ـ أنا لا أسخر . ولكني أرغب في أن أعينكم على القاء القبض على غريمكم الذي تحسبون أني اياه ! هل تعرف سيادتك ، معرفة شخصية، المواطن جلال الدين عرنوس ؟

فابدى الرئيس قليلا من الاكتراث :

ـ ليس من المفروض أن أكون على معرفة سابقة به . هذا بيته ، وانه أمامي .

ـ أؤكد لك أني لست اياه . واذا كان أحد السادة رجالك يعرفه، فليتقدم مني ، ويتفحص وجهي ملمحة ملمحة ، ليتضح لكم اني لست المواطن المطلوب !

الرئيس ينادي :

ـ من منكم يعرف جلال الدين عرنوس ، أيها الرفاق ؟

الجميع بصوت واحد :

ـ لم نعثر عليه حتى يومنا هذا ، يا سيدي .

حامل الاوراق يقول :

ـ ان الاوراق ، هنا ، تصف ملامحه وهيئته ، يا سيدي .

الرئيس يأمر :

ـ فاقرأ لنا .. ما لون عينيه ؟

ـ العينان .. العينان كستنائيتان .

الرئيس متقدما خطوة :

ـ انزل من على سلمك ، واقترب مني .

نزل «ج» الدرجتين الباقيتين . انه يعرف أن عينيه كستنائيتا اللون .. ولكن اضطرابا ، أي اضطراب ، لم يعره قط .

ـ دونك عيني الاثنتين .

ـ أرى .. لونهما .. كستنائيا .

ـ أمعن النظر فيهما جيدا : ما لونهما حقا ؟

ـ على وجه التحديد : أراه أميل الى اللون العسلي .. ولكن لا فرق يذكر : اللون العسلي ، هو اللون الكستنائي نفسه ، الا أنه أقل عتمة !

اعترض «ج» بسخرية صغيرة :

ـ هل تسمح لي سيادتك .. بالافصاح عن رأيي .. في أنك .. قليل خبرة بتمييز الالوان ، يا سيدي !

بدا الرئيس متحرجا :

ـ ليتقدم الي منكم من يأنس في نفسه القدرة اتكاملة على تمييز الالوان .

ازداد «ج» ثقة بأن عينيه ليستا كستنائيتين ، بل انهما لم تعودا عسليتين !

تقدم منه أحدهم ثابت الخطو :

ـ اقترب مني ، وافتح عينيك مليا .

ـ هاأنذا أمامك .

ـ ان اللون (وهو يدقق النظر) عسلي ، يا سيدي .. ولكن .. يخالطه شيء من الـ .. خضرة .. كما ألاحظ !

فتح «ج» عينيه على سعتهما :

ـ تقول : « شيء » ، شيء من الخضرة ؟ أمعن النظر جيدا !

ـ بل .. اني لارى .. كثيرا منها !

ـ تأملهما من جديد .

ـ انهما خضراوان !

ـ وأية خضرة ؟

ـ خضراوان .. خضرة يانعة !

ـ تفرس فيهما كرة أخرى .

ـ آه ! اني لاراهما ، هذه المرة ، زرقاوين !.. في زرقة السماء الصافية !..

أطبق «ج» جفنيه ، مانحا قليلا من الراحة لعينيه المبهورتين من الانفتاح :

ـ أرأيت ، يا سيدي ، أوثقت بما أقول ؟

الرئيس مشدوها :

ـ عجبا ؟ فكيف رأتهما عيناي ، قبل لحظة ، كستنائيتين ؟!

«ج» بطمأنينة :

ـ يخيل اليك ، يا سيدي !!

حامل الاوراق يتابع قراءته :

ـ ... الشعر ..

وأحس «ج» ، لتوه ، أن شعره يستحيل الى أشقر .

ـ ... أسود فاحم .

الرئيس يحملق في هامته :

ـ أحسب ، الان ، أن هذا الشعر أمامي يسمى .. أشقر ! أليس كذلك ، يا .. مميز الالوان ؟!

أجابه « مميز الالوان » :

ـ نعم ، يا سيدي : انه لشعر أشقر !

ـ وأحسب ، أيضا .. ولكني لست على يقين .. أني كنت أراه ، قبل قليل ، في لون آخر !

«ج» مشككا :

ـ وكيف يمكن ذلك ، يا سيدي ؟!

ـ أذكر أني رأيته ، لحظة دخولي بيتك ، وأنت في أعلى السلم ،

شعرا أسود فاحما !

«ج» بطمأنينة :

ـ يخيل اليك ، يا سيدي !!

حامل الاوراق :

ـ ... أسمر البشرة .

وأحال «ج» ، ببراعة خارقة ، بشرته السمراء الى بيضاء !

الرئيس مستنجدا :

ـ يا من يملك « القدرة الكاملة » على تمييز الالوان !

ـ انه أبيض البشرة ، يا سيدي !

الرئيس يضرب جبهته بيده :

ـ حقيق بي ، الساعة ، أن أجن ! انه ، لحظة نطق لسان حامل الاوراق بالكلمتين : « أسمر البشرة » ، كانت بشرته سمراء .. ثم .. لا أدري كيف استحالت .. على مشهد مني ، الى بيضاء !! هوذا يزداد ابيضاضا ، انظروا اليه ، حتى ليوشك ان يغدو « مُغْرَباً » !

ـ يخيل اليك ، يا سيدي !!

ثم ازداد احساسا بالانتصار : هي ذي جهودي المضنية تكلل ، في أول تجربة ، بالنجاح !

حامل الاوراق :

ـ ... طوله ١٧٧ سنتمترا .

طرح «ج» كمن طوله خمسة عشر ..

ـ الرئيس يصرخ في غضب :

ـ كفى ، كفى ، أيها الابله ! من الذي يطلب منك متابعة القراءة ؟

ـ ان طولي .. مائة واثنان وستون سنتمترا !

أعلن «ج» ذلك ، وهو « يتقاصر » .. ثم أحس أن جسمه ، الناحل، قد كسي لحما !

غمغم الرئيس ، حاجبا عينيه بكفه ، ومديرا رأسه الى جانب :

آه ! هوذا قد انقلب ، مثل حرباء ، أمام عيني ، أكرش بطينا !

ـ يخيل اليك ، يا سيدي !!

فتح مميز الالوان فمه :

ـ انه ...

قاطعه الرئيس فاقدا كل صبر :

ـ ابتعد عني ، أيها الغبي ! قياس الطول ليس من « اختصاصك » الذي لم أرك بارعا فيه !

متراجعا الى الوراء ، متهافتا على حافة البركة .

وشمخ «ج» بأنفه ، اذ رآه مطرقا ، معتمدا رأسه بين كفيه ، وقد بدا غارقا في حزن عميق . فكر : ها قد تم لي أن أخدع ، على نحو رائع ، من ظنوا أنهم أوقعوني في الشرك !

رفع الرئيس رأسه ، وفي صوت كليل قال :

ـ بعد طويل العذاب ، بعد المرات المائة ، يطلع جلال الدين عرنوس ، بين أيدينا ، امرءا آخر !

سمع «ج» ذلك ، فتراءى له أن يجدد من عزيمته :

ـ لا تدع اليأس يتسرب الى نفسك ، يا سيدي ! ان في وسعكم ، مع البحث الدائب ، أن تعثروا على « جلال الدين عرنوس » هذا ، يا سيدي !

انتصب الرئيس واقفا :

ـ حسن . سؤال أخير لك ، أيها الرجل الذي أوسعنا بيته بحثا وتنقيبا : ما اسمك ؟ ما اسمك ، اذن ؟

وتعين على «ج» ان ينتحل ، من الذاكرة ، اسما :

ـ « جابر » ..

ـ جابر ، هكذا ، اسم فرد ؟

فكر :

ـ لا .. ان لي اسم أسرة طبعا .. أسرتي التي أنتمي اليها .. (وأسعفه خياله) كِنْدي ... اسمي « جابر كِندي » !

ـ كندي ؟! هل أصلك من بلاد « كندا » الباردة ، أيها الاشقر الكلي البياض ؟!

ضحك «ج» :

ـ تلك بالفتح : « كَنَدي » . واسمي بالكسر .

ـ بالكسرة : كِ ؟ أتكون من « آل كِنْدي » ، أولئك الذين لا يموت رجالهم الا بالرصاص ؟

ـ كلا ، كلا ! كسرة يليها سكون : كِنْ .. كنْ .. كنْدي . اني ، يا سيدي ، سليل أسرة الفيلسوف العربي العظيم « يعقوب الكندي » ، المتوفي في العام ٣٥٨ للهجرة : وأول من كتب في « علم البصريات » !

صرخ ، هنا ، حامل الاوراق كمن مسه صاعق :

ـ كندي ! كندي ! ان رجلا من أسرة « الكندي » هذه ، مطلوب للسلطة ، في ما أذكر ، يا سيدي !

تبسم «ج» بمرارة : ها هم أولاء قد ولغوا في بطون التاريخ ، حتى بلغوا في اداناتهم أزهى صفحاتنا !

حامل الاوراق يقلب ، بين يديه ، أوراق سجل ، على عجل :

ـ ألف ـ باء ـ تاء ـ جيم ـ دال ـ طاء ـ قاف ـ كاف ـ كاملي ـ كزبري ـ كف الجمل ـ كندي ـ كندي ـ هوذا (ماطا صوته) : « جابر كندي » !!

تساءل «ج» جزعا :

ـ جابر كندي .. في قائمة المطلوبين ؟!

الرئيس يميل على حامل الاوراق :

ـ أرني السجل ، أرني .

فكر «ج» : أتراهم يلقون القبض علي ، آخر الامر ؟!

ـ هذا غير معقول ! أنا لست جاب .. أنا لم أرتك ..

ـ جابر كندي .. (قرأ الرئيس مشرق الوجه) مطلوب منذ تاريخ .. آآ .. (معلنا في ظفر) البحث عنك ، يا سليل عالم البصريات ، جار منذ سنوات طويلات .. (ملتفتا الى رفاقه) دخولنا الى هذا البيت لم يضع سدى ، أيها السادة !

توسل «ج» بصوت يرتعش :

لا بد أن في الامر التباسا ، يا سيدي . ما هي صفات جابر كندي، ذاك الذي تطلبون ؟

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

- من أدبنا المعاصر
  للدكتور طه حسين
- قضايا جديدة في أدبنا الحديث
  للدكتور محمد مندور
- مشكلة الحب
  للدكتور زكريا ابراهيم
- تجديد رسالة الغفران
  لخليل هنداوي
- دراسات في الادب الجزائري
  لابو القاسم سعد الله
- بابا همنغواي
  لهوتشنر
- الادب المسؤول
  رئيف خوري

رد حامل الاوراق ، وهو يتناول سجله ويدسه تحت ابطه :

ـ تفصيل ذلك ليس عندي . انه هناك ، هناك .

فغمغم ، وقد استولى عليه يأس عظيم : يا للمصادفة الشقية : أنطقني لساني باسم مطارد مثلي ! أم أن الاسماء ، كل الاسماء ، مطلوبة للسلطة ..؟

قاطعه الرئيس :

ـ بماذا تغمغم ، جابر كندي .. (وأومضت عيناه) يا « اكتشافنا » اللذيذ ؟.. بماذا تغمغم ؟

ـ أنا لست جابر كندي ، يا سيدي !

ـ حقا ، حقا ! وثقوا يديه جيدا ، أيها الرفاق .

أيقن انه قد وقع في الشرك :

ـ أنا امرؤ آخر .. غير جابر كندي !

ـ بماذا تهذي ؟

ـ اني أقول الحقيقة ، يا سيدي .

ـ أأقول ، أنا ، لك الحقيقة ؟ اني أنا ، أنا ، سليل عالم البصريات .. أيها المخادع !

ـ لست مخادعا . اني مواطن نافع .

ـ نافع .. وتنفلت من قبضاتنا ، طوال سنوات ،

ـ لانني غير مذنب .

ـ .. قبل أن يقدر لك أن تقع بطريق المصادفة !

ـ لقد انتحلت اسم جابر كندي من خيالي ، يا سيدي !

اعترف «ج» بذلك ، وهو يحس « أقنعته » المستعارة وقد تهاوت كلها مرة واحدة !

ـ لا أصدقك !

أحدهم يهتف :

ـ انه « يطول » بين أيدينا ، يا سيدي !

آخر يؤكد :

ـ وان جسمه « لينحل » !

مميز الالوان يصرخ عاجبا :

ـ رباه ! أين زرقة السماء في عينيه ؟ لقد تحول لونهما الى كستنائي خالص ! يا للشيطان ! والشعر أسود فاحم ! آه ، والبشرة ، هي ذي ، سمراء .. سمراء .. سمراء ! أي جنّي بين أيدينا !!

حامل الاوراق صائحا في فرح غامر :

ـ سيدي : أنها صفات « جلال الدين عرنوس » عينها !

هتف الرئيس :

ـ عندما كنت أفصح عن شكي ، يلاحقني اللعين بكلمته التي أفقدتني صوابي : « يخيل اليك ، يا سيدي » ! كم لهوت بنا وخدعتنا ! يتهمني بأني « قليل خبرة بتمييز الالوان » ، ثم لا يفوته أن يهزأ بنا : « ان في وسعكم ، مع البحث الدائب ، أن تعثروا على جلال الدين عرنوس هذا، يا سيدي » ! ويبالغ في السخرية اذ يزعم : « أنا سليل الفيلسوف العربي العظيم يعقوب الكندي » ! « علم البصريات » ، ها !.. لكم ضللتنا وأمعنت في التضليل !

هم «ج» بأن يعلن ، وهو يحس ثقل الحديد في معصميه :

ـ سيد ...

جار الرئيس بصوته الهادر :

ـ لن أعتقك ولو خرجت من جلدك .. « يا سيدي » !

ـ انك ...

ـ لذ بالصمت ، أقول لك .. والا دستك ببسطاري !

وسقط «ج» على الارض ،

مكبلا بالحديد ،

مغشيا عليه .

فاضل السباعي

يوم مبكر

يا من يسهر في عينيّ مرارا قبل الفجر
ومرارا بعد الفجر
اهديتك باقة زهر من أزهار الصدر
اعطيتك حزمة شوك من اشواك العمر
قد غرست حول
بيوت الاهل .. وضاع انين النهر

***

في جوف الارض الصعبة تنهض نار
في افق الشمس جنوبا
تفتح نافذة خضراء
في القلب نوافذ تفتح .. علّمني الاشعار
علمني كيف اتمتم لحنا في أذن الاشياء ...

***

في هذا اليوم الباكر ابصرنا الاطيار
تكمن في جوف الصخر
تهجر اعشاش الشجر الصادح
فوق غدير الماء
في هذا اليوم المبكر اصبحنا أطيار
تكمن في جوف الصخر ...

***

قاسمني لقمة زادي .. أطعمني
من نبت الارض الصعبه
لكن اتركني احمل وحدي الصبر !
قد اشرق وجه خريفي
هذا اليوم المرعد
أتذكّر شهرا كنا نحرق فيه احطابا في الموقد
اتذكّر بيتا اصبح ذكرى
ترقد فوق الصدر
لا ابصر غير نوافذ تفتح .. تفتح فوق الجمر ...

الياس لحود